مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 11 عدد: 4 السنة: 2022
ص: 466 - 483 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الأنا الأنثوية في الأسطورة اللاهوتية: من إله إلى ضلع أعوج.

The Female Ego in the Thelogical Myth: from God to a Crooked Rib.

* فاطمة بوقري [1] / كريمة بلخامسة [2]

Fatima Boukarri[1] / Karima Belkhamsa[2]

مخبر تحليل الخطاب جامعة مولود معمري تيزي وزو الجزائر

جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر) [1]

جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية (الجزائر) [2]

University of Mouloud Maamri tizi Ouzou (Algeria)[1]

University of Abderrahmane Mera bejaia (Algeria)[2]

fatimaboukarri@gmail.com [1] / belkhamsakarima@gmail.fr [2]

تاريخ الإرسال: 2022/08/02	تاريخ القبول: 2022/09/29	تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص البحث

شهدت عصور التاريخ السحيقة العديد من التمثلات الدينية التي كانت بمثابة وسائل معبرة عن طبيعة الأشياء التي ساد الاعتقاد بقدسيتها، فانتشرت في تلك الأزمنة دمى فينوسية تناثر وجودها على حدود الباليوليت الأعلى، فكان ذلك مؤشرا على عبادة الأنثى العظمى كإله متعال، ممثلة للإنسان صورة للعالم القدسي، ومشكلة الأرضية الحقيقية لجملة مفاهيمه عن خلق الكون والآلهة والإنسان، ومن هنا جاء موضوع بحثنا المتمثل في محاولة تسليط الضوء على صورة المرأة والكشف عن التاريخ النسوي ودين الإلهة العظمى والعصر الأموسي المغيّب، ثمّ دراسة الانقلاب الذكوري وتشكل المجتمع الأبوي الذي تشكلت فيه جلّ المفاهيم المهيمنة على المرأة حتى يومنا هذا المكرسة لضعفها وتبعيتها.

وعليه سنسعى في هذا المقال إلى تلمس تشكل صورة المرأة في الأساطير والديانات البدائية بكونها إلهة في السماء ورئيسة القداسة على الأرض، ساعين في خضم ذلك كلّه إلى الإجابة عن إشكالية مهمة مفادها: ماهي التقلبات التاريخية التي أثرت بشكل جوهري على حياة المرأة حتى تحوّل مسار فاعليتها نحو التدني والانكماش؟ وهي الإشكالية التي تنفتح على أسئِلة فرعية أخرى منها: كيف امتدّ تأثير الظرف السلبي على المرأة حتى تحولت من مركز مقدس متبوع إلى هامش مدنس وتابع، محكوم بالحتمية البيولوجية وسلبية الاختلاف.

* بوقري فاطمة fatimaboukarri@gmail.com

الكلمات المفتاحية: أسطورة، أنوثة، ذكورة، مقدس، مدنس.

Abstract :

The ancient ages of history witnessed several religious representations which served as expressive means of the nature of things whose sanctity prevailed; during those times, Venusian dolls spread their presence on the borders of the upper Paleolite, this was an indication of the great female's worship as a transcendent deity, representing man as an image of the divine world, and the problem of the real ground of his totality of concepts about the creation of the universe, Gods and man. The woman also formed a secret that was linked to the creation's mistery and the offspring's continuity, and this cosmic secret carried an aura of holiness and appreciation. These Venus were in the form of spindle statues without features, with huge breasts and hips, which undoubtly reflected the one absolute goddess of the universe in her female form, it also reflected its dominance over the creation's manifestations and life alone. This is where our research topic came from, which is an attempt to shed light on the image of woman, in addition to reveal the feminist history, the religion of the great goddess, and the hidden Amosaic era; then studying the masculine revolution and the formation of the patriarchal society in which most of the concepts dominating woman till these days, devoted to her weakness and dependence, have been formed.

Therefore, we will endeavor in this article to touch and shape the woman's image in myths and primitive religions as a goddess in the sky and the chief of holiness on earth, the independent by herself and determining herself and the universe as well ; not to mention her image as a devil disguised in a soft skin that prevented man from one day of immortality. In the midst of all this, we attempt to answer an important problematic which is: What are the historical fluctuations that have fundamuntally affected woman's life, turning the path of her effectiveness towards decline and contraction? It is the problematic that leads to other sub-questions such as: How did the negative circumstance affect woman, so she turned from a sacred subordinate center to a profane and subordinate fringe, governed by the negativity of difference and biological determinism ?

Key Words: Myth, Feminity, Masculinity, Sacred, Profane.

مقدّمة:

تعدّ الأسطورة من أبرز أصناف الأدب الشفوي الضاربة في عمق التاريخ البشري، وقد عبّر الإنسان البدائي من خلالها عن أفكاره وهواجسه وقلقه الوجودي، ناهيك عن تعبيره عن معتقداته الفكريّة وتوجهاته الأيديولوجية أيضا، فالأسطورة تصويرٌ لهذا العالم الذي عجز الإنسان عن تفسيره فعزاه إلى قوى خارقة وغيبية ما ورائية تتحكم في الكون وتقف فوق العالم مانحة نفسها تسمية "الآلهة"، متصرفة فيه بمعزل

عن قوانين الطبيعة والبشرية، وإضافة إلى ذلك فهي صورة صادقة تعكس عقليّة الشعب وتفكيره ومعتقداته، ومن خلالها وجد الإنسان ضالته...وراء التفسيرات الطبيعية.

إن شاعرية الأسطورة أساسا تكمن في كونها انعكاسا لنظرة العقل البشري، إلى لحظة الخلق الأولى، أي خلق الإنسان وترتيب الأشياء والظواهر المحيطة به، وعلى هذا تكون الحقبة الأسطورية هي حقبة الأشياء/ الأفعال الأولى، إنّها بدايات المكان المقدس ومنشأ الأسلاف الأوائل، وترتيب معاني الوجود والعالم، وعليه فهي حكاية مقدسة ذات مضمون عميق تروي تاريخا مقدسا وأحداث الزمن البدئي، حاول الإنسان من خلالها الكشف عن حقيقة العالم والحياة والبدايات، وشغلته الغايات والنهايات، حيث اعتقد في البداية أنّ العالم بكلّ مظاهره يخضع لترابط قوانين وقواعد معينة وأنّ معرفته بتلك المترابطات تساعده في السيطرة على الطبيعة المحيطة به وإخضاعها لرغباته ومصالحه، فقد عاش حياته في عالم يكتنفه الغموض والألغاز والأسرار، ولقد كان للمظاهر الطبيعية وللبيئة من حوله أثر كبير على حياته، فكان ينظر إلى الشمس والقمر وتوالي ظهورهما على أنّها أشياء خارقة لا يجد لها أي تفسير، وللمطر والرعد والبرق والصواعق والأعاصير والزلازل والبراكين على أنّها أشياء مخيفة ومرعبة، ولكي يستطيع تحديد مفهوم خاص لهذه الأحداث الطبيعية أصبغ عليها صفة الألوهية، فصور لكلّ ظاهرة من هذه الظواهر إلهًا خاصًا يسيطر عليها.

إن الأسطورة ههنا تقدم نماذج توضيحية لحياة المجتمعات، لأنّها ببساطة تفسر نشأة بعض المؤسسات الاجتماعية البدائية القائمة تحت سلطة مجمع الإلهات والآلهة، فمن خلال ما وصلنا من الأساطير يتضح لنا أنّ المجتمعات البدائية كانت قائمة على قيم الأنوثة وهيمنة الأم، فالأم وحدها من استحقت التبجيل والتقديس في تلك العصور، لما بلغته هاته الأخيرة من أهمية في تشكيل الوجود البشري، ثم إنّ أدوار المرأة الاجتماعية قد ارتبطت في المقام الأول بقدرتها الخارقة على منح الحياة، وهو ما جعل منها تجسيدا لقوى طبيعية مؤثرة، والأرجح أنّ الأنثى هي الشكل الأول لعبادة الآلهة، وخير دليل على ذلك تلك التماثيل والمنحوتات والدمى الأنثوية التي انتشرت بكثرة في ذلك العهد القديم، والتي يمكن عدّها مؤشرا على ظاهرة عبادة الأنثى كإله متعال أولا، وكرمز خالد لعالم قدسي، عالم تحمل الأنثى فيه سرّ الخلق الأول وكلمة استمرار النسل الأبدي.

يمكننا القول بأنّ هاته التماثيل والمنحوتات تعدّ بمثابة دليل استرشد به الباحثون، ورجح من خلاله علماء الأساطير على أسبقية عبادة الآلهة الإناث على الذكور، ويعدّ ذلك تأكيدا على كون الرحلة

الأموسية أسبق من الرحلة الأبوسية في تطوير المجتمعات البشرية، وقد لا تصدق هذه الأدلة القطعية على جميع بقاع العالم القديم، غير أننا وبالمقابل نجد أنّ جلّ الديانات والأساطير القديمة تشترك في مفهوم الإلهة الأم، والقصد به هو تفريد إلهة أنثى وتخصيصها بدور الخلق والتكوين، ولعلّ أكثر المظاهر تجسيدا للأم الأولى/الكبرى هما الأرض والقمر، فالأرض هي مهد الإنسان ومنبع الحياة المتفجّر فيه، منها وُلد وإلى بطنها يعود، والقمر هو صورة الأنثى المتقلبة دوما بين الشحوب والبهاء، بين الحزن والسعادة، بين الكمال والنقصان.

وعليه، فإذا سلمنا بمقولة أنّ الأرض هي الأم الحقيقية للإنسان كونها تمدّه بكلّ معطيات الحياة، فما السرّ الذي يكمن في القمر، وما الذي جعله يعدّ تجسيدا للأم الكبرى للعالم؟ ولم كان ممثلا مرئيا للأنوثة؟ لم يفهم القدماء بطبيعة الحال طبيعة القوّة التي يقدسونها في القمر، لكننا ندرك أنّها كانت بالنسبة لهم رمزا لجوهر المرأة في تناقضها مع جوهر الرجل الذي رُمز له في وقت لاحق بالشمس، فما سرّ هذا التقديس الذي يربط بين القمر والمرأة بصفة خاصة كأنثى وإلهة مسؤولة على ديمومة الحياة والكون؟، وهل بقيت صورتها مقدسة في كلّ الديانات والعصور اللاحقة أم غيرت ودنست، فإذا ما أجبنا بنعم فما السبب الذي أدى إلى تدنيسها وانقلاب الذكر عليها على الرغم من أنّها عبدت لسنوات طويلة وكانت أول إلهة مسؤولة عن معجزة الحياة؟.

إنّ مناقشة طبيعة المبدأ الأنثوي/الإيروس «Eros» والقوانين التي تحكمه ذات أهمية حيوية لكلّ من الرجال والنساء اليوم، ذلك أنّه تمّ إهمال هذا المبدأ ومتطلباته في القرن العشرين في الكثير من الثقافات العربية والغربية، ولم تقابل المرأة إلاّ من خلال مراعاةٍ نمطيّة للعادات التقليدية، في حين تمّ تجاهل الينابيع الواهبة للحياة، المخفية في أعماق الطبيعة، لذلك كان من اللازم علينا أن نسعى مرّة أخرى إلى إقامة علاقة أفضل بالمبدأ الأنثوي، وفي مواجهتنا لهذا الموضوع علينا أن نتخلص من الأفكار المسبقة عن ماهية المرأة، وأن نتعامل معها بعقل متفتح، فلطالما كانت حضارتنا الأبويّة والعنصر الذكوري السائد مؤثرا حول مفهوم ماهية الأنثى، حيث بات من الحقائق الراسخة بيننا أنّ المذكر قويّ ومتفوق على الأنثى الضعيفة والأقلّ شأنا، وهذا ما لا نجده في المجتمعات الأموسية البحتة التي تقوم على عكس هذا الافتراض تماما.

لقد كانت نتائج هذا التغيير في التركيز على الفارق بين المذكر والمؤنث بعيدة المدى، وربما كان من أهم هاته النتائج أنّ مفهوما ما يشكلّ قيما دينية أو روحية يُرمز له بالقمر/الأنوثة ثمّ تمّ نقله إلى الشمس وأصبح تحت سيطرة الذكور، ففي أيّام عبادة القمر كان الدين يهتم بقوى غير مرئية لعالم الروح، وحتى

عندما تمّ نقل دين الدولة إلى عبادة الشمس، وإله الحرب والتعظيم الشخصي، بقيت صفات الدين الحقيقية مع آلهة القمر المؤنثة، لأنّ الإنسان مهما عَظّم الشمس لم يكن ليجد فيها ندا للقمر، سواءً أكان هذا التفاضل في حركية القمر وتقلب أحواله، أم تعلّق الأمر من جهة أخرى بقوى هذا الأخير الطبيعية والخلاقة، والتي ارتبطت دوما بقوى الإنتاج والخصوبة، وعليه فإنّ عبادة القمر هي في الأصل عبادة قوى الطبيعة الخلاقة المرتبطة بالحكمة الكامنة في الغريزة، بعكس عبادة الشمس التي هي في النهاية عبادة قوى تعمل على إخضاع الطبيعة أولا، بقصد ملئها بقوى فوضوية يتم تسخيرها لتحقيق الغايات الإنسانية.

ممّا سبق نجد أنفسنا ههنا أمام إشكالية مهمة تتعلق بأهم التقلبات التاريخية التي صاحبت انزياح صورة المرأة من مقام القداسة والإعلاء إلى منزلة الدنس والإسفال، أو بعبارة أخرى: كيف يمكننا تفسير ذلك التحول الجوهري الذي مس صورة المرأة؟ وكيف يمكن تفسير تغيير موضعها، من كونها مركزا حاكما ومتبوعا إلى كونها هامشا تابعا ومهيمنا عليه؟.

أولا. المرأة في الأسطورة، الألوهية المؤنثة:

1. رمزية القمر وعلاقته بالمبدأ الأنثوي في الديانات والأساطير البدئية:

إنّ الاعتقاد بوجود علاقة غريبة بين المرأة والقمر كان منتشرا على نطاق واسع منذ العصور القديمة حتى الوقت الحاضر، حيث ساد بين الهنود في كلّ من أمريكا الشمالية والجنوبية، وبين الزنوج في أفريقيا، وبين القبائل البدائية في أستراليا وبولينيزيا، وبين الشعوب الأصلية في آسيا، بينما يدمج شعوب الهند والصين ومنغوليا والجزيرة العربية وسوريا واليونان القديمة وروما وغيرهم هذه المعتقدات حول القمر في مركز هيكلهم الديني، لذلك يبدو أنّ دراسة رمزية القمر قد تعطينا بعض الفهم لطبيعة المرأة والمبدأ الأنثوي.

إن علاقة القمر بالمرأة معتقدٌ عالميٌّ منذ العصور القديمة إذ كانوا ينسبون قدرتها على الإنجاب –هذا الفعل الإعجازي– على أنّه هدية القمر، فهو المسؤول الأساسي على خصوبتهنّ؛ ففي غرينلاد يعتقد شعوبها بأنّ القمر هو الذي ينفخ الحياة في أرحام النساء، كما يقتصر دور الفعل الجنسي الذي يمارسه الرجل على تسهيل مهمة القمر والذي يعدّ المسؤول الحقيقي عن الحمل في المعتقد النيجيري، أمّا لدى قبائل الماوري في كلّ من أمريكا الشمالية وبعض من قبائل منغوليا فيعتقد بأنّ القمر هو زوج جميع النساء وهو الوحيد القادر على إخصابهنّ دون تدخل الرجل في ذلك، فتكتفي الأنثى بالوقوف عارية تماما في وعاء مملوء بماء تمّ تعريضه إلى القمر، أو تكشف جزءها السفلي تحت ضوء القمر ليتمّ إخصابها، حتى أنّ بعض الروايات تذكر أنّ ولادة بوذا كانت من عذراء لقحت من ضوء القمر.

إنّ تشابه هاته المعتقدات، ترجع أصولها إلى الإيمان القديم بقوة الأم القمرية الكبرى الخالقة التي تنفخ الحياة في أرحام النساء[1]، وليس هذا فحسب فالمرأة في ثقافات الأقوام البدائية تعتمد على القمر في كلّ مهامها وأنشطتها اليومية كالزراعة ونمو الأشياء ورعاية النار وطهي الطعام، حتى إنّ إيقاعها الشهري يتوافق مع دورة القمر "الذي يبدأ هلالا في أول الشهر ليتلاشى في آخره بعد أن يمرّ في فترة تقع في منتصف الشهر عندما يبلغ البدر تمامه، حيث كان سكان بلاد الرافدين يعتبرون تمام البدر يوما تحيض فيه عشتار لتستريح من كلّ أعمالها"[2]، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ حياة المرأة الفيزيولوجية والسيكولوجية ذات طبيعة قمرية، حيث انتشر في الفولكلور القديم وخاصة بين قبائل الهنود في أمريكا الشمالية وأوروبا فكرة حيض القمر وذلك في فترة تضاؤله، بينما الدم السماوي الذي أكدوا على نزوله في العهد القديم كان هو "دم القمر"، وأنّ أول حيض للفتاة يرجع إلى اتصال القمر بها أثناء نومها.[3]

إنّ هذا الاقتران والاتصال الذي وجد بين القمر والمرأة "له ما يبرره في نظر الإنسان القديم، فكلاهما ينتمي إلى المبدأ السالب في الطبيعة والكون ... ذلك المبدأ الذي أطلق عليه في الفكر اليوناني اسم "الإيروس". الذي يقابله المبدأ الموجب "اللوغوس"، أمّا الإيروس فهو عالم الطبيعة والرغبات والغرائز وخفايا النفس، واللوغوس هو التسلط على الطبيعة، والمنطق والتفكير المنظم البارد، إلى الإيروس تنتمي المرأة، وإلى اللوغوس ينتمي الرجل"[4]، هذا إضافة إلى ارتباط القمر بسمات نفسية وطبائع تعود إلى المرأة كالتقلب وعدم الثبات على حال (المزاجية)، ناهيك عن البهاء الليلي والجمال (عند اكتمال البدر)، وكذا الشحوب المرتبط بالنفاس والمحيض.

إنّ كلّ هذه البركات التي تمنحها الأم القمرية قد جعلت من ظهورها في أول الشهر بشرى طيّبة يترقبها الناس في كلّ مكان، ومازال التفاؤل برؤية القمر الجديد قائما إلى يومنا هذا لدى كلّ الشعوب دون أن يدركوا تفسير ذاك، كيف لا؛ وهي سيّدة الوقت والأقدار والمصائر، والمؤشر الوحيد على مرور الزمن وصانعة حركته، فالأم القمرية الكبرى هي التي ابتدأت زمن الكون المنظم بعد أن خرجت به من أزمان الهيولى الأولى[5].

إنّ كلّ ما سبق ذكره يشير إلى المرحلة الأولى في الوعي البشري، أين كانت تنظر إلى الأنوثة نظرة تقديسية كليّة لا يخالطها أيّ تشويه، حين كان البدائي لا يدرك دور الرجل في عمليّة الخلق... لأنّه كان يرى في المرأة حاملة الجنين ووالدته، بينما هو عاجز عن كلّ هذا. وفي مرحلة لاحقة أدرك هذا الرجل أنّ المبدأ الأنثوي الغامض الذين يكنون له التبجيل وفي الوقت نفسه يرهبونه ويغارون منه ليس كافيا لوحده

لحدوث معجزة "الحياة"، فالمبدأ الذكوري أيضا مشارك حاسم في هذا الأمر، فأصبح الرجال ينظرون إلى المرأة بكونها أقل قداسة ممّا كانت عليه سابقا، فشوهت صورتها ونزعت منها قداستها وتفككت أسطورة الأم الكبرى، "ولم يبق منها سوى جانبها السالب المعتم الذي ما فتئت الأسطورة الذكرية تكرسه وتفرزه عن بقية الوجوه، ولم يبق من عشتار سوى جنية الظلام، والغولة والنهالة والساحرة العجوز."[6]

لقد حاولت هذه "الديانات الذكرية المتطرفة أن تجتث صورة الأم الكبرى من نظامها الأسطوري، كما هو الحال في الديانة العبرانية بشكلها التوراتي المتأخر، فلا نكاد أن نجد ههنا ما يذكر بالأم الكبرى سوى أثر باهت باقٍ في شخصية حواء التي حولت من مبدأ الكون إلى مجرد أم للجنس البشري، وحتى أمومتها هاته ليست أصيلة، لأنّها هي نفسها مولودة من الذكر آدم، وبذلك يبلغ تحوير أسطورة الأم الكبرى أبعد غاياته، وذلك بتجريدها من أمومة البشر، وإعطاء آدم فضل الأبوة والأمومة —الأبوة لإنجابه الجنس البشري بواسطة حواء، والأمومة لإنجابه حواء نفسها"[7]، فلابد أن نتساءل ههنا عن التقلبات التاريخية التي أثرت على حياة المرأة لتحوّل مسار فاعليتها نحو التدني والانكماش؟.

2 . انزياح الإلهة الأم والانقلاب الذكوري:

مرّت مرحلة طويلة من عمر البشرية كانت الألوهية فيها تعزى إلى الأنثى، إذ تم النظر إليها بكونها واهبة للحياة وضامنة لاستمرار النسل بحملها وولادتها، وحملها هذا كان أمرا مهما عند الإنسان بحكم غريزة البقاء التي لديه، ونتيجة له سلمت قيادة المجتمعات إليها.

ولعلّ هذه القوّة الأنثوية قد كانت بالنسبة للإنسان القديم موضع حب ورغبة، وخوف ورهبة في آن معا، فمن جسدها تنشأ حياة جديدة، ومن صدرها ينبع حليب الحياة، وهي بهذا تشكل منشأ الأشياء ومردها، منها تصدر الموجودات وإلى رحمها يؤول كلّ شيء كما صدر، ثمّ تزعزعت الأنظمة الدينية النيوليتية مع بزوغ عصر الكتابة، وذلك في العصر الحجري النحاسي "الكالكوليت" حين ظهرت المدن الكبيرة ذات التنظيمات المدنية والسياسية والاقتصادية المعقدة، فانعكس واقعها على الحياة الدينية الجديدة، فمع انتقال سلطة المجتمع نهائيا إلى الرجل وتكوين دولة المدينة ذات النظام المركزي والهرم السلطوي الذي قام على أنقاض النظام الزراعي الأنثوي البسيط، ظهرت الآلهة الذكور وتشكل مجمع الآلهة برئاسة الإله الأكبر "تموز" أو "أدونيس" .

إنّ الكتابة التي ابتكرها الإنسان في مطلع العصر المدني، وراح يدون بها أساطيره الموروثة عن أسلافه البسطاء قد ساهمت في تظليل صورة الأم الكبرى والمرأة بعامة، وألقت غلالات سميكة أمام وجهها[8]،

وأصبح وضع الأم الكبرى الإلهة الواحدة مهددا بالتراجع شيئا فشيئا، فأُطلقت عليها أسماء متعددة يشير كلٌّ منها إلى وظيفة معينة من وظائفها، ثم استقلت هاته الأسماء فصارت ذواتا منفصلة فاستقرت، كالإلهة "نمو" أو "تيامات" الإلهة البدئية والمياه الأولى، "إنانا" إلهة الطبيعة والخصب والدورة الزراعية، وغيرهنّ من مجمع الإلاهات كنوت، و"ايزيس" و"هاتور" و"أرتيميس" و"أفروديت" و"ديانا" وغيرهنّ...

إنّه ومع بدايات العصر الحجري النحاسي الكاكوليت، توطدت الزراعة ودجنت الحيوانات، ومن هذا التدجين تعرف الرجل إلى دوره في التخصيب، وفهم قوة ذكر الحيوانات الاغتصابية في الغريزة الحيوانية، فعمل على الاستفادة منها كعنصر قوة يساعد على إخضاع المرأة، ومع اكتشاف المعادن وتصنيع الأدوات المستخدمة في الصيد والزراعة، استطاع الرجل السيطرة على العملية الإنتاجية، وساهم التراكم الفائض وبدء ظهور الفوارق الطبقية والنزوع إلى الملكية الفردية في إعادة التفكير في النسب الأمومي، وبدأت مظاهر الانقلاب الذكوري وتشكّل النظام الأبوي.

إنّ شكيمة الرجل القائد العسكري التي قويت استطاعت منحه القدرة للهيمنة على جنسانية المرأة التي كانت السبيل الوحيد لانتقال الثروة، فضلا عن إحكامه السيطرة على الملكية فكانت قوننة الزواج والتأكيد على طهورية الزوجة كضمان للنسب الأبوي، وعززت الأمومة ومنحت الحظ الأكبر من العناية والحماية وسنت القوانين لصالح الأب كممثل للإله وللملك، وهكذا إذن أزيحت الأنثى من السلطة والقيادة، وانقلب الذكر عليها وبصراعات عنيفة دموية أطيح بسيادة الأم وأزيحت عن المكانة السامية، واستولى الرجل على عرش الحكم وزمام السلطة الذي كان يشتهيه، فانهارت الثقافات الأموسية وحلّت بدلها الثقافات الذكورية "فغلبت الشمس القمر وتوطدت الديانات الشمسيّة السماوية، وراحت آلهة الشمس وآلهة السماء السامية تبني أمجادها بعد معارك حاسمة مع سيّدة العتم"[9] فنشأ الكهنوت على أنقاض العبادة الأنثوية، وانتقل الإنسان من معتقده الزراعي الأنثوي إلى معتقده النحاسي الذكوري السماوي، وتحول إلى عابد للآلهة الذكورية.

صحيح أنّ الرجل استولى على مكانة المرأة في الحكم غير أنّ هذا لا يعني أنّها اختفت نهائيا من عالم الآلهة، إذ تم خلق العديد من الآلهة الإناث، غير أنّها كانت تابعة ومسيطرا عليها، فارتبطت بالغواية والمكر والدهاء كما عكستها ملحمة جلجامش، فمن خلال نظرة جلجامش لعشتار وتصويرها على أنّها سيّدة الغواية والمكر والدهاء، سنعلم بأنّ المرأة باتت على الأرض مصدر قلق ومصدر غواية، يقول جلجامش وهو يخاطب عشتار حين طلبته للزواج :

"مَا أَنْتِ إلاّ مَوْقِدٌ تَخمَدَ نَارُهُ وَقْتَ البردِ.
بَابٌ خَلْفِيّ، لاَ يَحمِي مِنْ رِيحٍ أَوْ عَاصِفَةٍ.
قَصْرٌ يُسْحَقُ الأَبْطَالُ مِنْ حُمَاتِهِ.
حُفْرَةٌ يَخفي غِطَاؤُهَا كُلّ غَدْرٍ.
قَارٌ يُلَّوِثُ حَامِلَهُ.
قِرْبَةُ مَاءٍ تُبَلِلُ حَامِلهَا.
حَجَرٌ كِلْسِيٌّ، هَشٌ، فِي صُورَةِ صَخْرِي.
حَجَرٌ كَرِيمٌ فِي بِلاَدِ الأَعْدَاءِ.
صِنْدِلٌ يَزِلُ بِهِ مُنْتَعِلَهُ.
أيُّ حَبِيبٍ أَخْلَصْتِ لَهُ أَبَدًا؟
وأَيُّ رَاعٍ أَفْلَحَ يُرْضِيكِ دَوَامًا؟
تَعَالِي أَفْضَحُ لَكِ حَكَايَا عُشَّاقِكِ"[10]، ومن ثمّ سرد لها كلّ ضحاياها.

إنّ هذا المقطع كافٍ بالنسبة لنا لتتشكل في ذهننا صورة عشتار، إذ يعطينا انطباعا واضحا بكوننا أمام نموذج من نماذج شيطنة المرأة وتدنيس صورتها، وها هي ذي عشتار تطالب جلجامش بمتعة دنيوية زائلة، هي أقرب من نزوات البشر منها إلى خصائص الآلهة المتعالية، وهو ما يعطينا انطباعا بدونية التفكير الأنثوي المرتبط دوما بالحاجة إلى إفراغ شهوة الجسد ولو على حساب السمعة والمنزلة والقداسة، ثمّ أنّ هاته المرأة التي نتحدث عنها ههنا لا يمكن حصر دورها إلاّ في دورها كآلة جنسية، وهو ما يتأكد أكثر في صورة "كاهنة الحب" الدمية الجنسية التي تسعى إلى ترويض الوحش إنكيدو:

"وَلْيُعْطِيكَ كَاهِنَةُ الحُبِ تَصْحَبُهَا مَعَكَ.
دَعْهَا تَكْسِرُ شَكِيمَتَهُ، بِقُوَّةٍ تَفُوقُ قُوَّتَهُ.
فَعِنْدَمَا يَرِدُ الماء لِسَقْيِ الحَيَوَان،
دَعْهَا تَنْضُو ثِيَابَهَا وتَكْشِفُ مَفَاتِنَهَا،
فَإِنَّهُ لَمُقْرَبَاها إِذَا رَآهَا".[11]

إنّ المرأة في ملحمة جلجامش تعكس بوضوح ما حصل بإلهة الكون، وكيف أنّها أجبرت على الانخراط في مجمع الآلهة، مجبرة في الوقت نفسه على طاعة الإله الأكبر الذي منحت له إمكانية الخلق بالكلمة، وبالتالي بدأت مرحلة تذكير الآلهة، والتي أسست لبداية عصر بطريكي أبوي بامتياز.

ولعلّ أكثر الأساطير الدالة على هاته النقلة الاجتماعية والانقلاب الذكوري ما ترويه ملحمة "إينوما إيلش" عن أسطورة الخلق البابلي والتي تشير إلى صراع الآلهة الأول الذي كان بين الآباء والأبناء، كما تشير إلى القتل الشنيع الذي مارسه الابن "مردوك"/مردوخ" تجاه الأم الأولى "تيامات" التي كانت تمسك زمام السلطة ردحا من الزمن، فشق "مردوك"/مردوخ" جسدها إلى نصفين، جاعلا النصف الأول سقفا للسموات والنصف الثاني أرضا تمتد فوق المياه الجوفية، ومن لعابها خلق الثلج والجليد والغيوم والمطر، ورتب رأسها وصنع منه الجبال والتلال، وأجرى من عينها اليمنى نهر "دجلة" ومن عينها اليسرى نهر "الفرات"، وجعل ثدييها تلالا، وأجرى من حلمتيها الينابيع وعيون الماء، وأخيرا رسخ الأرض وملأ جوفها بالتراب لكي يضمن موتها النهائي، فلا تقوم ثانية ولا تسترد سلطانها منه[12].

هكذا إذن يقوم الإله "مردوك/مردوخ" عبر صراعه مع الإلهة "تيامات" بتشكيل الكون من جسدها بصورة مكتنزة بالرموز المعبرة عن تاريخ الانقلاب على المجتمع الأموسي، حيث تظهر لنا هاته الأسطورة وبشكل جليّ دحر الإلهة العظمى وجنوح الإله مردوك/مردوخ للتفريد، وتحول الخلق من رحم المرأة، إلى الخلق بالكلمة من فم الرجل، ومن هنا بدأت مرحلة الحكم المردوخي الذكوري الأبوي القائم على فكرة إرساء نظام كوني واضح، قائم على حسابات وقوانين محددة خرجت من خلاله البشرية من مرحلة التماهي البدائي/ السحري الطبيعي الذي كان يميّز الثقافة الأموسيّة، إلى مرحلة النظام المؤمن بسلطان العنف وجبروت السلطة الذكورية والتي طوعت الطبيعة والأنوثة معا.

إنّه وبعد انزياح السيادة الأموسيّة عن موقعها السلطوي، جرت محاولات وجهود من قبل المدونين والكتاب والمؤرخين لمحو آثار تلك العهود التي يفترض أنّها اتسمت بالسيادة الأموسية، حتى أنّ بعض الباحثين أعلنوا أنّ موضوع النظام الأموسي ما هو إلاّ وهم أطلقه بعض الكتاب ولا يستند إلى أيّة أسس موضوعية، متجاهلين تجربة الحضارة "المينوية" في "كريت"، كما شاعت في الغرب نزعة تتسم بالعداء الصارخ والمعلن للنساء مبعثه ذلك الخوف الطقوسي من المرأة، والذي كرسته بعض الأساطير باعتباره خوفا عفويا نتيجة علاقة النساء بالطبيعة وتماهي أدوارهن البيولوجية.

3. دونية المرأة في الأسطورة، من إلهة إلى ضلع أعوج:

أصبحت المرأة في العهد الجديد إذن تقدم في الأساطير بصورة أقل قداسة ممَّا كانت عليه سابقا، فباتت آلهة خصب وجمال –وهي الأكثر انتشارا في الحضارات–، وظلت وظائفها تجمع بين عناصر المكر والخداع والخصب حتى تمّ توحيد الآلهة في الحضارة الفرعونية، ومع هذا التحول أخذت الآلهة الأنثوية تختفي وتبدأ مكانة المرأة بالتراجع بصورة كبيرة، حتى أصبحت عنوانا للغواية والدنس وارتبطت بالخيانة والصراعات، وهو ربط لا يمكن تجاهل جذوره التاريخية المرتبطة بقصة الخطيئة الأولى التي نسبت إلى المرأة في الديانة العبرية المحرفة، حيث "اعتبرتها مصدر الإثم واللعنة، فحمّلها التوراة ذنب غواية آدم وإخراجه من الجنة، النعيم الأبديّ، فجعلته يتملص من المسؤولية، إذ يقول في التوراة على لسانه "هذه المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت" (التكوين، الإصحاح 3/12)."[13] ولعلّ أشهر هذه الأساطير التي رسخت لهذه الخلفية وشوهت صورة المرأة هي تلك الأسطورة اليونانية التي أسست لمفهوم الشر المرتبط بالمرأة، إذ يقول النص الأسطوري: إنّه كان يسكن في بلاد الإغريق ذكور خلقوا من طين، ولم تخلق معهم أيّ أنثى، وعندما وهب "زيوس" الأرض إلى "بروميثيوس" عمّرها، رأى الرجال تائهين في البرد والعواصف الطبيعيّة، فأراد "بروميثيوس" أن يقوم بعمل يغيّر أحوالهم، فسرق النار من جبل "أوليمب"، حيث يقيم الآلهة الخالدون ومنحها للرجال الفانيين، وكانت النار وقت ذاك حكرا على الآلهة، فغضب "زيوس" وقرر معاقبة "بروميثيوس" بتسليط الشر على الأرض، فطلب من "فولكانو" إله النار والحدادة أن يخلق المرأة فوهبتها "فينوس" الجمال والحب ومنحتها "أثينا" الذكاء والحكمة، ووهبها بقية الآلهة البراعة والجرأة والفضول والمكر والخداع، وأعطاها "زيوس" صندوقا وطلب منها ألاّ تفتحه، وهو يعلم أنّها ستعصي طلبه، فدفعها فضولها لكشف غطاء الصندوق فخرجت الشرور والأمراض والآثام من الصندوق وبقي فيه شيء وحيد هو الأمل الذي راح يطير إلى جهات العالم ويخفف عن البشر آلامهم وأحزانهم .[14]

إنّ ما يحاول الرجل فعله بخلقه لهذه الأسطورة هو تكريس فكرة تهور المرأة وفضولها الزائد الذي دائما ما يكون سببا في حدوث اللعنة على البشرية، وهي التيمة نفسها التي جاءت بها قصة الخليقة، وعليه نلاحظ في كلتا الحادثتين منعا من قبل الإله –منع آدم وحواء من أكل ثمار الشجرة، مقابل منع زيوس فتح المرأة للصندوق– وخرق المنع من قبل المرأة التي تعصي أوامر الإله –فتأكل الثمار وتفتح الصندوق– لتسلط على نفسها وبقية البشر العقاب (الطرد من الجنّة، الشرور والأمراض والآثام).

وعليه، أصبحت المرأة تجسد أخبث الأجناس، إنها الشرُّ الذي يتلبس الرجال، كما لخصها "هزيود" في قوله "إنّ جنس النساء اللطيف جاء من بندورا، هذا الجنس الخبيث الذي هو شرّ مستطير يتلبس الرجال، فالمرأة ليست رفيقة حياة تشارك زوجها الفقر والألم، وإنّما خلقها زيوس مصدر شرّ وفساد".[15]

لقد جاءت الأسطورة هنا لتلبي طموحات الرجل ورغباته، وإذا كانت حكاية مقدسة توارثتها الأجيال عبر الزمن، فها هي تتحول إلى نمط سلوك، وعلى ما يبدو فإنّ الرجل بعد إلقائه الستار على عصر الأمومة، قد صاغ مناخه الأسطوري بالشكل الذي يستوعب تفوقه ويكرس دونية المرأة ومسؤوليتها عن ديمومة الشقاء في هذه الحياة.

لم يقتصر التمييز بين الرجل والمرأة عند هذا الحد، بل تجسده الأساطير في عمليّة الخلق أيضا...تقول الأسطورة الهنديّة: "إنّ الإله الأكبر وبعد أن تمّ خلق الأشياء من أرضٍ وسماءٍ وماءٍ وزهرٍ ونباتٍ وحيوانٍ، راح يعمد إلى خلق الإنسان ليستريح من عناء العمل الجبّار، وعلى هامش عمليّة الخلق تلك قرر خلق شريك للرجل يؤنس وحدته ويسلّي عنه الهموم، لكنّه استنفد كلّ مواده، فمن أين سيأتي بالمادة الأولية، يحتار أولا ثم يقرر أن يأخذ شيئا من كلّ الأشياء التي خلقها ويمزجها لتكون امرأة، فأخذ من البان قوامه، ومن النسيم رقته، ومن الأفعى خبثها، ومن الأرنب وداعته، ومن الطاووس غروره، ومن الماس صلابته، ومن العسل حلاوته، ومن العلقم مرارته، ومن النار حرارتها ومن الحمام هديله ومن الببغاء ثرثرتها، فكانت المرأة التي أهداها للرجل لتؤنس وحدته وتضفي البهجة على حياته".[16]

إنّ ما تحاول أن تظهره لنا هاته الأسطورة كغيرها من أساطير الخلق هو فكرة الأسبقية فوق هاته الأرض، والتي كانت من نصيب الرجل، وهو أمرٌ كافٍ لإعطائه حق السيّادة والتحكم بالأشياء، أمّا بالنسبة للمرأة فماهي إلاّ كائنٌ لطيف خلقت لأجله هو، بغية تسليته ومؤانسته والتخفيف من وحدته، ولعلّ ما يدّل على صدق قولنا هذا هو أنّ المرأة في الثقافة الهندية لم يكن لها حقٌ في الحياة بعد وفاة زوجها، بل يجب أن تموت بعد موته مباشرة وأن تحرق معه حيّة على موقد واحد، إنّ هاته الأسطورة تعكس لنا وبشكل لا يعوزه اليقين مكانة المرأة عند الهنود والتي اعتبرت "مادّة إثم وعنوان الانحطاط الخلقي والروحي، حيث ورد ذلك عند شعائر مانو أنّ الوباء والموت والجحيم وسم الأفاعي والنار خيرٌ من المرأة"[17].

4. صورة المرأة في الفكر الأسطوري الجزائري:

لم تقتصر فكرة دونية المرأة على الأساطير الإغريقية والسومرية والهندية فحسب، وإنّما تجاوزتها، إذا نراها تتكرر بكثرة في أساطير شمال أفريقيا وخاصة الأمازيغية منها، والتي تصورها في الكثير من الأحيان في صورة عجوز شمطاء أو ساحرة شريرة تسببت في العديد من المشاكل واللعنات التي حلّت على البشرية، فكانت سببا في ظهور المنية للبشرية كما جاء ذلك في أسطورة "أصل الموت" التي وردت في كتاب "ليو فروبينيوس" "أساطير قبائلية في خلق الكون وتصور العالم"، يقول النص الأسطوري: "إنّ البشر كانوا خالدين لا يموتون، وحين يتعبون من الدنيا، تستريح أرواحهم بعد أن تغادر أجسادهم فترة ما، ثمّ تعود إليها وتستمر الحياة، وكان هنالك زوجان يمتلكان طفلا رضيعا، وكان الرضيع ينام داخل مهده، وإذا بالإله يدخل البيت ويخاطب الأم قائلا: "هل تريدين أنّ يموت ابنك للأبد، أم أنّك ترغبين بأن يرحل لمدّة صغيرة فقط؟" فكرت الأم لحظة، ويقال أنّ الأم الأولى للعالم تسللت إلى البيت وهمست لتلك الأم قائلة: "إذا أنت أجبت الخالق بأنّ ابنك يجب أن يغادر لبعض الوقت، لا تنسي أنّ تلك الفترة قد تطول أكثر مما تتصورين، أمّا إذا فضلتِ أن يموت كلّ البشر بشكل نهائي فإنك سترين ابنك عمّا قريب...، فكرت الزوجة لبرهة ثمّ أجابت الإله: "دع البشر يموتون، ولا تتركهم يعودون إلى سطح الأرض، ولكن بالمقابل اسمح لي برؤية ابني قريبا"، أجاب الإله: "رغبتك مستجابة، فودّعي طفلك لأنّه سيموت في الحين، وإذا أردت رؤيته فورا فأنت ملزمة بالموت بعده بقليل" ذعرت المرأة وتضرعت للإله متوسلة إيّاه عن سوء الفهم الذي حدث بينهما، لكنّ الإله ردّ عليها قائلا: الكلام الأول هو الذي يفيد"، مات الطفل... وبعده ماتت الأم...ومن ذلك صار البشر يذهبون ولا يعودون".[18]

تشير هاته الأسطورة إلى أنّ "الميثولوجيا بصفة عامة تنسب الحياة للمرأة، وكذلك ينسب إليها الموت كما أشارت إلى ذلك "تاسعديت ياسين: "فالطابع الاستثناري والجائر للمرأة هو الذي يشكل أصل الموت"[19]

ليس هذا فحسب فقد كانت المرأة سببا في انعدام الثقة بين البشر، وذلك بسبب تحريفها لرسالة الإله وخطئها في توزيع هداياه على البشر. تقول الأسطورة: "في بداية الخلق كان الإنسان يثق بغيره من النّاس، وساد الأمان على سطح الأرض، ولم يكن الخداع موجودا ولا حتى النفاق، ولكنّه في يوم من الأيّام انتهى كلّ شيء: أراد الخالق إيصال هدايا وعطايا لبني البشر، ولما كانت المرأة أكثر مهارة ونباهة من الرجل استدعاها ليوكلها مهمة توزيع الهدايا، فحملّها كيسين من النقود وكيسين آخرين من القمل، وأمرها

قائلة: "اذهبي حيث القبائل وسلمي لهم كيسي النقود، وفي طريقك ارمي بالكيسين الآخرين واحد منهما على العرب والآخر على الأوروبيين" وأخذتهما المرأة وانصرفت لتأدية مهمتها. ولما وصلت إلى القبائل ألقت عليهم كيسا من القمل، وألقت بالآخر على العرب ولكنّها قدمت لهم كيسا من النقود، وسلّمت كيس النقود المتبقي للأوروبيين، لتعود أدراجها حيث الإله لتخبره بما قامت به.

وعند وصولها خاطبت الإله قائلة: "لقد أنجزت المهمة التي كلفتني إيّاها" وردّ الخالق قائلا: "وهل أنجزتها كما أمرتك بها؟"، أجابته المرأة: "أجل قمت بها كما أمرتني"، فقال الخالق: "أخبريني -إذن- كيف وزعت الهدايا؟"، فردت المرأة قائلة: "لقد رميت كيسا من القمل على القبائل وآخر على العرب، وسلمت كيسا من النقود للعرب وآخر للأوروبيين". فتعجب الخالق متسائلا: "القبائل -إذن- لم يحصلوا إلا على كيس من القمل؟"، فأجابت الفتاة بالإثبات، ولذلك بقي الأمر على حاله، إذ يمتلك القبائل القمل، ويمتلك العرب القمل والنقود بينما يمتلك الأوروبيون المال فقط.

غضب الإله وثارت ثائرته، واغتاظ لسوء تصرف المرأة على الرغم من الثقة التي وضعها فيها كونها أكثر نباهة من الرجل، فقال لها: "بسبب امرأة بدأ يدب الشك وتنعدم الثقة على الأرض، إنّ النساء أكثر ذكاءً وفطنة من الرجال، ولكنهنّ أسأنّ التصرف بارتكابهنّ هذا الخطأ ممّا يستوجب بقاءهنّ في البيت من الآن فصاعدا، بينما أنت ستعاقبين بسبب خطئك سأمسخك غرابا حالك السواد، اذهبي وحلّقي فوق الأرض مردّدة: "عرقاغ، عرقاغ" أي "أخطأت" وهو صوت الغراب نفسه حينا ينادي.

بدءا من هذه الحادثة شيّدت القاعدة الآتية: لن يتناول أحد طعامه مع شخص آخر لا يكنّ الاطمئنان وراحة البال، ولا مع شخص خان الثقة التي وضعت فيه، ولا تزال هذه الوضعية على حالها إلى أيّامنا هذه: إذ فقد الناس الثقة، ومنذ هذه الحادثة أصبح الرجال لا يثقون بالمرأة لأنها قد تخون الثقة التي وضعت فيها.[20]

لعلّ ذاكرة الرجل فيها الكثير ممّا يكرس دونية المرأة بتحميلها إثم إغضاب الإله في مواضع عدّة في الأساطير، ففي كلّ مرة تنسب لها فكرة الخطيئة وتكون سببا في انتشار الشرور وحلول اللعنة، فنجدها في هذه الأسطورة الأمازيغية تثير غضب الإله مثل كلّ مرة، وتكون سببا في انتشار الخيانة فوق الأرض وانعدام الثقة التي كانت سائدة من قبل، ولعلّ حادثة الخطيئة هي أكبر الأعمال المدمرة التي تسببت بها المرأة في كلّ الثقافات على مستواها العالمي، فبسبب تهورها وأنانيتها تخرج البشرية من نعيمها الأبدي إلى دائرة الشقاء والبؤس.

لقد كانت الأم الأولى للعالم وكما تصورها الأساطير الأمازيغية تزرع النفاق بين الأهالي وتسبب الفتن بين المجتمعات، حتى إنّها أول ساحرة على الأرض، وكلّما ازدادت كبرا وشيخوخة كلّما اشتدت شراستها وقساوتها، يقول النص الأسطوري في هذا الصدد: "في الزمن البدئي كان كلّ شيء يتكلم، الأحجار والأشجار والماء والأرض، وكانت أم الدنيا قد كبرت وشاخت كثيرا، لتكسب خبرة طويلة في أمور الدنيا، فقد علّمت البشر كيف يمارسون عملية نقل النار والأحجار من مكان لآخر وذلك بجمعها في شكل حزمة ويمتطونها لتقلّهم حيث ما يشاؤون بمجرد أمرها بذلك، هكذا علّمت الأم الكبرى العالم كيفية التحكم في معالم الطبيعة من حجر وماء وشجر وخشب، ولما بلغت هذه الأم أشدّها، صارت ساحرة شريرة وأرادت أن تجعل الناس يعتقدون أنّها هي من خلقت كلّ شيء وأنّهم يدينون لها بالكثير، لكن الناس لم يكترثوا لها ولم يصدقوا ما كانت تدّعيه فعزمت عزمتها في بث الفراق والشقاق بين الناس. استبقت العجوز ذات مرّة النساء الأخريات إلى الغابة فجمعت كومة كبيرة من الحطب لتمتطيها آمرة إيّاها بأن تقلها إلى بيتها، وبعد مسيرة ضرطت العجوز على كومة الحطب، فتوقفت الحمولة فورا قائلة: "أيّتها العجوز لقد أهنتني وقلّلتي من احترامي، بل وأفسدتِ الهواء الذي من حولي، فلن أتحرّك مكاني ولن أحملك من اليوم فصاعدا"، حاولت العجوز مرارا وتكرارا أن تحثّ الكومة على الحراك ولكن عبثا لم تستجب لطلبها، نزلت العجوز من على الكومة ورفعتها لتحملها على متن ظهرها وتتجه صوب بيتها. ومنذ تلك الحادثة رفضت الأعواد والأخشاب حمل الناس إلى منازلهم، وصاروا هم من يتحملون عبء الحمولات ليقلوها إلى البيت، الأمر الذي تسبب في غضبهم، خاصة حينما علموا أنّ العجوز هي السبب في ذلك، مستنكرين فعلتها المسيئة للحطب، لتظهر أوّل معالم الصراع بين البشر على سطح الأرض، ليتبادلوا الشتائم وأخذوا يتجادلون ويتخاصمون حتى نجم عن هذا الخصام التباس وعقدة في ألسن البشر وصاروا لا يفهمون لغات جيرانهم وأقربائهم."[21]

إنّ ما يمكن أن نلتمسه من هاته النصوص الأسطورية-بغض النظر عن صور المرأة المشوهة والمدنسة- هو رواسب النظام الأموسي في المجتمع القبائلي في فترة من الفترات الزمانية، حيث توحي هاته النصوص بسيّادة المرأة وسيطرتها على الرجل، فمثلا في النص الثاني الذي نجد فيه "تحوّل المرأة إلى غراب" نلاحظ أنّ الإله اختار امرأة في سبيل أن تؤدي مهمة في غاية الأهمية، كونها أكثر نباهة وفطنة من الرجل، وأنّ المرأة هي المؤسسة لهذا العالم وخالقته، وهي التي علّمت البشر بكلّ أمور الحياة كما تظهر في النص الأخير، ثمّ أخذت صورتها تتشوه شيئا فشيئا، فكلّما شاخت وكبرت في السن انغمست في السحر والشر، فهي

الساحرة الشريرة والمدمرة والمسؤولة عن انتشار الشرور والنزاعات فوق هاته الأرض، لتصبح في النهاية السبب الأول لتشتت العالم.

خاتمة:

وخلاصة القول: إنّ المرأة قد حظيت بمكانة مميّزة في الفكر التاريخي الأسطوري، بين الماضي المدون المؤول، وبين ذاك الذي لم يدون، فعبدت وقدست ردحا من الزمن في أغلب المجتمعات النيوليتية.

صحيح أنّ العصر –النيوليتي– لم يخلف لنا شيئا مكتوبا، غير أنّه خلف لنا كنوزا من التماثيل والرسوم والمعابد، فالحضور الطاغي للفينوسات النيوليتية وإن عده بعض الباحثين غير كاف ليكون حجة على انتشار عبادة الآلهة الأنثى وبأنّه لا يعدو كونه وجودا متواصل لممارسة دينية شعبية، إلاّ أنّه سرعان ما صعدت الحجة الأقوى لصالح المعنى الديني لهذه الفينوسات النيوليتية كأدلة حقيقية على وجود ألوهية مؤنثة وأم كبرى لهذا العالم التي كانت مهيمنة في جميع القصص والأساطير، حيث تشكلت الأسطورة النيوليتية الأولى وكانت أموسية بامتياز كما شهدناها في أسطورة سومر، فكانت المرأة الحاضن الأول لكيان الأسرة والمنتج المساهم والمسؤول عن الثورة الزراعية الأولى في التاريخ.

كشفت لنا العديد من الدراسات والأساطير القديمة أنّ القمر كان يعدّ–وفي العديد من الثقافات البدائية– ممثلا للأنوثة، وذلك لارتباطه بسمات نفسية وطبائع سيكولوجية تعود إلى المرأة نفسها، فعُبد وبُجل واعتبر كأمّ كونية مسؤولة عن ديمومة الحياة.

إنّ تراجع مكانة المرأة من كونها إلهة إلى كونها مصدر غواية وشرور كان بسبب اكتشاف دور الرجل في عملية الخصب والإنجاب فبدأت مظاهر الانقلاب الذكوري وتشكل النظام الأبوي مع بداية العصر الكالكوليتي ومع اكتشاف المعادن، وبزوغ عصر الكتابة فراح الرجل يدون أساطيره بتحطيمه لصورة المرأة المقدسة.

إنّ الدراسة المتأنية للأساطير الأمازيغية من شأنها أن تكشف لنا صورة المرأة في المجتمع الأمازيغي والتي نجدها في الكثير من الأحيان مصدر شرور ولعنات، ألحقت الكثير من الأذى لبني البشر، فتسببت في ظهور المنية لسوء استعمالها الكلام الذي بنته على أسس انفرادية ذاتية على حساب روح الجماعة كما ظهرت في أسطورة "أصل الموت"، كما عملت على بث النفاق والشقاق بين الناس، وتسببت في تشتت المجتمعات، فالمرأة إذن وفي جلّ أساطير العالم ارتبطت بالخطيئة دائما وأبدا.

هوامش:

[1]- ينظر: سواح فراس: لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، (1985)، دار علاء الدين، ط1، (سوريا)، ص 83-84.

[2]- المرجع نفسه، ص:75.

[3]-voir: M. Estber Harding, Woman's Mysteries, Ancient and modern, ,(2016), Shambahala boulder, (New York) p 57- 58.

[4]- سواح فراس: لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ص 86.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 85-93.

[6]- نفسه، ص: 97.

[7]- نفسه، ص: 59.

[8]- ينظر: المرجع نفسه ص: 25-26.

[9]- المرجع نفسه، ص: 80.

[10]- سواح فراس: كنوز الأعماق قراءة في ملحمة جلجامش، (1978)، سومر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، (قبرص)، ص 149-150.

[11]- المرجع نفسه، ص: 96.

[12]- ينظر: هايدل ألكسندر: سفر التكوين البابلي –قصة الخليقة ملحمة "حينما في الأعالي"– تر: الغانمي سعيد، (2007)، دار الجمل، ط1، (ألمانيا)، ص 17- 26.

[13]- مالية بصال: "مكانة وواقع المرأة في الحضارات القديمة ومقارناتها مع واقعها في الإسلام"، 2021، مجلة تافزا للدراسات التاريخية والأثرية، جامعة مرسلي عبد الله تيبازة العدد 00، ص 25.

[14]- ينظر: فريزر جيمس: أساطير في أصل النار، تر: ثلب الشام يوسف، (1988)، دار العلم، ط1، (دمشق)، ص 219.

[15]- إمام عبد الفتاح إمام: الفيلسوف والمرأة، أفلاطون والمرأة، (1996)، مكتبة مدبولي، ط2، (القاهرة)، ص29.

[16]- ينظر: بصال مالية، "مكانة وواقع المرأة في الحضارات القديمة ومقارناتها مع واقعها في الإسلام"، ص:24.

[17]- المرجع نفسه، ص:24.

[18]- ليو فروبينيوس: أساطير قبائلية في خلق الكون وتصوّر العالم، تر: نبيل حويلي، (2020)، دار الأمل، ط1، (الجزائر)، ص 63-64.

[19]- ينظر: حويلي نبيل، منظومة الأسطورة في منطقة القبائل –دراسة أنثروبولوجية–، 2016، (أطروحة دكتوراه)، كليّة الآداب واللغات، قسم الأدب العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ص 245.

[20]- ليو فروبينيوس: أساطير قبائلية في خلق الكون وتصور العالم، تر: نبيل حويلي، ص 60.

[21]- ينظر: حويلي نبيل: منظومة الأسطورة في منطقة القبائل –دراسة أنثروبولوجية–، ص 246-247.

قائمة المراجع:

– الكتب:

1. إمام عبد الفتاح، الفيلسوف والمرأة، أفلاطون والمرأة، (1996)، مكتبة مدبولي، ط2، (القاهرة).
2. سواح فراس، لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، (1985)، دار علاء الدين، ط1، (سوريا).
3. سواح فراس، كنوز الأعماق قراءة في ملحمة جلجامش، (1978)، سومر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، (قبرص).
4. فريزر جيمس، أساطير في أصل النار، تر: ثلب شام يوسف، (1988)، دار العلم، ط1، (دمشق).
5. ليو فروبينيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون وتصور العالم، تر: نبيل حويلي، (2020)، دار الأمل، ط1، (الجزائر).
6. هايدل ألكسندر، سفر التكوين البابلي –قصة الخليقة ملحمة "حينما في الأعالي"–، تر: سعيد الغانمي، (2007)، دار الجمل، ط1، (ألمانيا).
7. M. Estber Harding, Woman's Mysteries, Ancient and modern,(2016), Shambahala boulder, (New yourk).

–المجلات:

8. مالية بصال، "مكانة وواقع المرأة في الحضارات القديمة ومقارناتها مع واقعها في الإسلام"، 2021، مجلة تافزا للدراسات التاريخية والأثرية، جامعة مرسلي عبد الله تيبازة العدد 00.

– الرسائل والأطروحات:

9. حويلي نبيل، منظومة الأسطورة في منطقة القبائل –دراسة أنثروبولوجية–، 2016، (أطروحة دكتوراه)، كليّة الآداب ولغات، قسم الأدب العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر.